الإنســـــاني بين الكثرة و الوحدة

إعداد: الصحبي بوقرّة

أستاذ مبرّز في الفلسفة

إدغار موران :" الإنسان هو كائن ثقافي بالطبيعة،لأنّه كائن طبيعي بالثقافة "

(*Le paradigme perdu*, p.100, Points n°109)

1- **في دلالة الوحدة و الكثرة:**

إن اهتمام الفلسفة بمسألة الوحدة و الكثرة لا يرتبط بسؤال ما الإنسان فحسب و إنما يرتبط بكلّ المباحث التي انشغلت بها الفلسفة واشتغلت عليها ، إلى درجة دفعت البعض إلى التأكيد على أن فهم مسالة الوحدة والكثرة هو المحددّ الأساسي والجوهري لأي مقاربة فلسفيّة ، و لكن الإحراجات و التوترّات التي تلازم السؤال عن الإنساني في علاقة بمسألة الكثرة و الوحدة هو الذّي سيدفعنا للإنشغال بالمسألة الأنتروبولوجية بعامة و سؤال "ما الإنسان؟" بخاصة ؛ و لذلك يجب أن نقرّ مبدئّيا بأننا نلج في هذا السجلّ عالما مترامي الأطراف يطال السؤال الأنطولوجي و السؤال الأنتروبولوجي ، عالم قد يدعونا لاستحضار كل تاريخ الفلسفة ما لم نحددّ بدقة المشكل الذي سنعالجه ، بحيث تكون العودة للفلاسفة محاولة للإجابة على المشكل المطروح سلفا و الذي نصوغه على هذا النحو: هل يقتضي القول بالوحدة نفي الكثرة؟ و إذا كانت الكثرة هي السمة المميّزة للواقع الإنساني فهل يدفعنا هذا الواقع إلى القول بأزمة الكلّي أو التشكيك فيه؟ و هل يفضي التشكيك في الكلّي إلى التشكيك في مطلب الوحدة؟و هل يتعارض واقع الكثرة بالضرورة مع الوحدة المنشودة؟ اليس من الممكن التفكير في الإنسانيّ وجوديّا و ثقافيّا في ظلّ القول بالكثرة والوحدة في آن؟

الكثرة سمة الواقع الإنساني

المسألة الأولى: **الإنية و الغيريّة**

في مستوى الإنيات: أنا جسد+أنا وعي+أنا إرادة+ أنا هو+أنا الآخر...

المسألة الثانية: **الخصوصية و الكونية**

في مستوى الخصوصيات: الهوية الثقافية+الاثنية+الدينية+الأخلاقية...

- الإنيّة كثيرة وواحدة او هي وحدة متكثّرة... - يغيّر الإنسان خلاياه سبع مرات في حياته. - يرتبط مفهوم الشخص بلفظة PERSONA التي تحيل بدورها على فكرة القناع ، ولذلك كان يسمى من يستخدم القناع للتمثيل بـEpocritu أي المنافق	- الخصوصية كثيرة وواحدة او هي وحدة متكثّرة ... - تحيل الخصوصية على الهوية الثقافية و الايتيقية.. - الإنسان كائن ثقافي و لكن الثقافة ثقافات... - إنّ ما يجمعنا (وحدة) يفرّقنا (كثرة) بدء باللغة والمقدسّ...

2- في الإنساني و اللاإنساني:

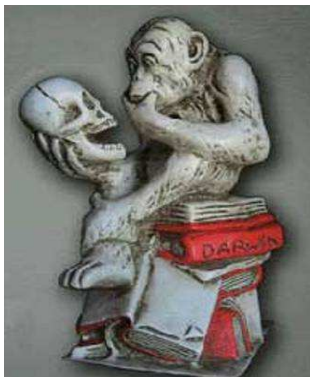

- مثّل الوجه الحيواني للإنسان التعريف الماقبلي له ،بحيث يحدّ الإنسان إمّا من جهة إرتباطه أو تجاوزه لهذا الوجه الملازمة لإنيّته و هويته ، كأن نقول:"الإنسان حيوان ناطق" أو"حيوان عاقل" أو"حيوان ثقافي" أو " حيوان سياسي zoon politikon" ، فلازم حدّ الحيوان التعريف وكأنه يقين لا مفرّ منه إلا لمن يكون جديرا بخلق ماهية تقتلعه من هذا المعطى ، فتكون مهمّة وجوده و مشروع كيانه ،و إذا كان هذا المعطى يلازم هذا الحدّ فهل يحقّ لنا إعتبار الحيوانيّة فينا غيريّة ام انها إنيّة علينا القطع معه؟ و أين يكمن هذا الخطّ الفاصل في الإنسان بين الحيوانيّة والإنسانيّة؟ أليس من الممكن النظر للسؤال والتفكير و النظر و الوعي على أنّه ما به يكون الإنسان إنسانا طالما أن الحيوان لا يسأل؟ ألا يتحوّل السؤال ذاته عن الإنسان عتبة الإنساني؟
- و إذا كان السؤال شأن إنساني[1] فإن السؤال عن الإنساني هو بالأساس شأن فلسفي ، هو إنساني لأنه يعبر عن قلق[2] مخصوص يجعل الإنسان وجها لوجه مع ذاته و قبالة العالم ، حيث يكون هذا القلق على حد عبارة كيركيجارد شرط إمكان التحرر بدء من الحيوانية فيه.

> « L'angoisse est la possibilité de la liberté »
> Kierkigaard

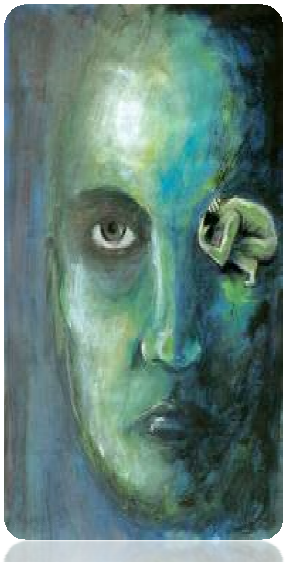

ليس السؤال إذا هو الإنساني بقدر ما هو القلق الذي يمثّل المحرّك الأساسي لكل سؤال و لكلّ فعل أو نشاط أو موقف:

- فالقلق هو الذّي يدفعنا للبحث عن أجوبة جديدة يبدو أنها تقترب نحو الحقيقة دون أن تدركها.
- والقلق هو الذي يلزمنا برفض الاكتفاء بالكائن ، و البحث دائما هناك فيما وراء حدود المكان والإمكان.
- و القلق هو السبب و المحدد و الدافع و "الموجه لكل إرادة "على حد عبارة جون لوك.

أما السؤال القلق فيمكن صياغته على هذا النحو: هل يمكن أن يكون للإنسان - الذي هو في آن نوع espèce وفرد individu - ماهية تحدد بمفردها طبيعته كإنسان؟

سيكون رهان معالجتنا لمشكل السؤال عن الإنسان ، و مشكل القلق الملازم لوجوده التأكيد على الموقف الذي يقول بأنه ليس للإنسان لا ماهية و لا طبيعة بل و لا حتى إنية ثابتة ومنغلقة على عالم الذات و عالم الفكر و الوعي ، و نحن نراهن باتخاذ هذا الموقف على حريّة الإنسان و نعترف أن على الإنسان أن يدفع ثمن هذه الحرية و ذلك لعدّة اعتبارات:

1- سنتعرض لاحقا إلى الأسئلة التي لا تعبر عن طبيعة الإنسان و إنما عن شرط تحقق الإنسانية، كما سنكشف كيف أن الإنساني يتحدد بشكل الأسئلة والطابع المأساوي لطرحها و لا يتحدد بالأجوبة كما نجد ذلك في معرض حديثنا عن الطبيعة الحيوانية.

2- القلق هو موقع الشيء في اللا-مكان، أو هو دليل عدم تموقع الشيء بعد، وهو بخصوص الإنسان يحيل على الاضطراب و الانزعاج؛ ووضعية القلق كوضعية الريشة في مهب الريح، لا مستقر لها فلا مستقر له. و ما القلق الذي يشعر به المرء إلا حنين نفس مستغيثة، تنشد الاستقرار فلا تحصل عليه إلا بالعودة إلى المبدأ الخارق كما يقول أغسطين: يا رب لقد خلقت من أجلك، و سأظل ما حييت قلقا حتى أستقرّ فيك، أو بالإبداع الخلاق، أو بالتفسير العلمي، ويمكن للقلق أن يكون مصدرا أو دافعا للهم باعتباره يعبر عن سعي الإنسان وراء المعنى.

أولا: أنّ الإنساني ليس معطى ما قبليّ و إنما هو مسألة جدارة واستحقاق و هذا يؤكّد على فكرة التغيّر و الحريّة و التاريخيّة...

ثانيا: أن الإنسان يعيش في الثقافة لا في الطبيعة أو أنّ الطبيعي في الإنسان كونه كائن ثقافي ، و هذا يعني أنهّ لا يمكن التفكير في الإنسان داخل طبيعة ثابتة.

ثالثا : الإنسان هو الوحيد الذي يمكن أن يكون المفهوم و ضدّه ، إذ لا يمكن مثلا أن نقول أنّ هذا الطفل سيكون مفكّرا أو أديبا أو فنانا و أن طفلا آخر سيكون مجرما... و هذا يعني مبدئياّ أن الإنساني وجود ممكن ، أو أنه ما يعدُ به الإنسان ، الذي قد يلتزم بما يعد و قد لا يلتزم ، و لذلك قد نعثر لدى الإنسان على الإنساني و قد نعثر كذلك على اللاإنساني.

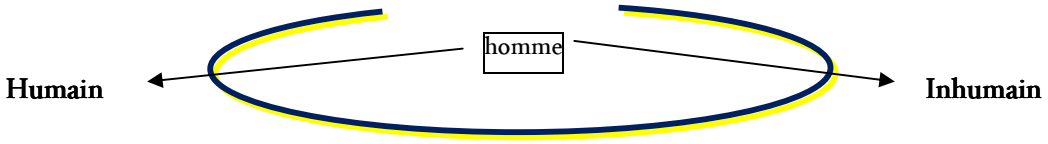

و لكن أن يكون الإنسان مفهومه هذا ما يمكن فهمه و ما يفترض التسليم به ، و لكن أن يكون الإنسان ضدّه فهذا ما يصعب التسليم به أو قبوله ، بل هل يمكن ان نصف باللاإنساني بعض الأفعال الإنسانيّة ؟

فاللاإنساني **l'inhumain** وإن كان يتعارض مع الإنساني فهذا لا يعني ضرورة انه غير إنساني **non-humain** .

و هنا يكمن المشكل الحقيقي إذ فكرتنا عن الإنساني و حتى عن الإنسان لا تحيل على وحدة مطلقة أو كونية ، بل تحيل على كثرة و تنوّع واختلاف إلى حدّ التعارض.

و الفكرة المرتبطة باللاإنساني تحيل –شأنها شأن الإنساني- على الثقافي ، ففي القديم مثلا جلد العبيد لا يعدّ لا إنسانيا ، لأن العبد هو الذي ينظر إليه على أنه لا إنسان ، فأرسطو يعتبر العبد من يمتلك قدرات جسدية للامتثال للأوامر[3]. والأمر سيان بالنسبة لبعض الشعائر والعادات الاجتماعية و الطقوس الدينية[4]، التي مارسها الإنسان في ما مضى وإلى اليوم باعتبارها ممارسات إنسانية. لقد اعتبر مونتاني في كتابه محاولات [الفصل الخاص بآكلي اللحوم] أن الأكثر وحشية ليست بعض الشعائر و الطقوس ، و إنما الحروب التي قامت باسم الدين كالحروب الصليبية ، ونعثر على ذات الالتباس لحظة يتعلق الأمر بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، الذي وانطلاقا من هذه التسمية يقترح فكرة كونية عن الإنسان ، في حين أنه مجرد ترجمة لرؤية الإنسان الغربي للإنساني.

هكذا يبقى اللاإنساني كقيمة رهين تصوّرنا للإنساني الذي لا ينفك يتغير ، إلى درجة قد تدفعنا إلى تغيير مقاربتنا من القول بالتعارض إلى القول بإنسانية اللاإنساني. و الغريب في الأمر أننا لانلتقي باللاإنساني إلا في معرض حديثنا عن الإنسان و كأنه خاصية إنسانية ، فقطّ أو كلب أو أي حيوان يتحوّل في لحظة ما حيوانا مفترسا لا نعتبره لأجل ذلك لاإنساني في حين يكون العكس ممكنا ، ليس هنالك إذا إلا الإنسان الذي يكون لاإنساني ؛ و هذا هو مأتى التناقض في الحقيقة ، فإذا كان الإنسان هو مصدر اللاإنساني ، فإن هذا يعني أن اللاإنساني يساهم في تكوّن الإنساني ، بل يعني أيضا أنه يوجد في كل كائن بشري.

و إذا كان الحس المشترك أو الوعي الجماعي كثيرا ما يرمز للاإنساني بأشكال كاريكاتورية فيها الكثير من السخرية و الاحتقار كصورة الوحش أو الصادي أو الإرهابي ، فإننا نقول أن هذا الحس يسخر من ذاته ويحتقرها ، أو انه حس لم يتمكن بعد من رؤية ذاته على حقيقتها.

[3]- إذ يعرف أرسطو العبد في كتاب السياسة على أنه من يمتلك قدرة على الطاعة:

Aristote, " *ceux qui ont la capacité corporelle d'exécuter les ordres* ". La Politique

[4] - **le cannibalisme, les mutilations sexuelles, ou les rites d'initiation.**

لقد اعتبر أفلاطون أن الفرق الوحيد بين الرجل الطيب و المجرم ، هو أن الأول يحلم بما يفعله المجرم حقيقة ، في حين يفعل المجرم ما يحلم به ، فاللاإنساني ليس ما هو خارج عنا أو غريب و إنما هو أنا آخر يختفي وراء الجسدي و الرغبوي واللاواعي أو هو غيرية لا تطفو على سطح الإنيّة أو هو عدوانيّة تختفي وراء الطقوس الثقافية و الدينية.

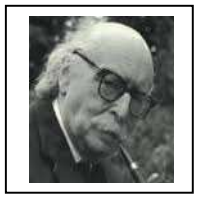

"il faut savoir reconnaître l'humain jusque dans l'inhumain. L'ignoble est souvent du noble mal tourné ".
Jean Rostand : Carnet d'un biologiste

داخل كل واحد منا إذا يختفي اللاإنساني الذي نحاول جاهدا التغلب عليه ، أو رفض وجوده إما جهلا أو تجاهلا .و نحن كثيرا ما نضع في نفس الإطار الغريب و العدوّ والآخر الثقافي والهمجي والبربري و الوحشي في خانة اللاإنساني ، في حين نتعامل مع الإنيّة و الهويّة و الخصوصيّة على أنّها الإنساني بامتياز ، ولكن هذا لا يعني أن اللاإنساني هو كلّ ما يكون خارج عالم الإنساني.
و إذا أمعنا النظر في كل ما تقدم يمكن أن نقول أن إمكان التناقض و واقع الكثرة لا مثيل له في عالم الحيوان ؛ الإنسان حركة أفعاله ، و هي حركة تصنع منه الوجه و الوجه الآخر ، أو على الأقلّ تصنع له الوجه الذي يرتضيه ، و إذا اعتبرنا كما يقول سارتر وكذلك قرامشي أن الإنسان ليس شيئًا آخر غير ما يصنع ، ندرك صعوبة الإحاطة بطبيعة الكائن البشري ، أو باستحالة تقديم تعريف ماقبلي **a priori** ، يلمّ بالإنساني في مجمل تجلّياته .

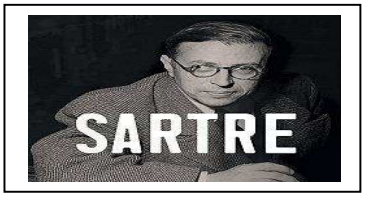

«Les objets sont ce qu'ils sont, l'homme n'est pas ce qu'il est, il est ce qu'il n'est pas»
Sartre:l'existentialisme est un humanisme, 1946, Paris, Nagel, pp. 196

«L'homme *qui n'est d'abord rien, qui ne sera qu'ensuite et qui sera tel qu'il se sera fait* »
Sartre:l'existentialisme est un humanisme, 1946, Paris, Nagel, pp. 196

«En fait, nous sommes une liberté qui choisit, mais nous ne choisissons pas d'être libres, nous sommes condamnés à la liberté»
Sartre:l'existentialisme est un humanisme, 1946, Paris, Nagel, pp. 196

و لكن يمكن أن نتخذ الصعوبة و التمنّع منطلقا للتعريف ، ليكون الإنسان ما سيكون ، أو ليكون الإنساني وجودا ينقصنا. و كأنه محكوم علينا باختيار و بناء و خلق حياة تعبّر عن الإنيّة و تحمل في ذات الحين صورة الكلّي و الإنساني ، و لذلك هو اختيار حرٌّ ومسؤول ، فلا يوجد خارج الذات ما يمثل تعلّة الفعل و لا مبرّر الاختيار ، وإذا كان الإنساني و اللاإنساني هي الصور الممكنة للإنسان ، علينا الاختيار بين صور الإمكان هذه.

و لكن هل يعني هذا أنه ليس من الممكن رصد شيء من الوحدة في الكثرة ؟ اليس من الممكن تحديد الإنساني إنطلاقا من تعدّد وجوه تحققّ الإنسان ؟ ثمّ هل يفضي الإعتراف بالتنوع و الإختلاف و الكثرة إلى التخلي عن التفكير في وحدة الإنساني ؟

الوحدة ممكنة في أعماق الكثرة ، ولذلك كان من اللازم الإعتراف بالتمزّق و الإقرار بالتناقض ،حيث يمكن أن نعرّف الإنسان على أنه الكائن الممكن أو أنّه الكائن الذي يصير بعد ما كان أو هو كينونة .

تمزقا يعبّر عنه الوجود الإنساني في شكله التراجيدي و كأن المأساة شرط وجود و مقتضى من مقتضيات الإنساني:

- المأساة: هي صورة هذا التمزّق الضروري بين الاختيارات الممكنة و المتناقضة.

- شرط إنسانية الإنسان: في مقابل فكرة الطبيعة الإنسانية التي أثبتنا عبثية الحديث عنها بخصوص الإنسان ، أي في مقابل فكرة الماهية نتحدث عن الإنساني كشرط ، بمجموع الأسئلة المشتركة الخاصة بالإنسان. إذ تعبر الطبيعة الحيوانية عن مجموع الأجوبة المتناسقة بفعل الغريزة لمجمل المشاكل الحياتية التي يواجهها الحيوان ؛ في حين يعبر الشرط الإنساني عن وجود محيّر يسمه القلق و السؤال ؛ لذلك تكون الأجوبة الممكنة مختلفة باختلاف الثقافة ، وهو الاختلاف الضروري الذي يحافظ على أصالة الأسئلة و استمراريتها ، وهذا يعني أننا بخصوص الإنساني لا نكتفي -من جهة- بالأجوبة و لا نعتبرها مطلقة أو نهائية ،و ندرك من جهة ثانية أن الأسئلة المطروحة تعبرّ في جوهرها عن القلق المتأصلّ فينا .

3- الإنساني و قلق السؤال:

- هل من معنى لوجود حكم عليه بالموت قبل أن يوجد ؟

الوعي بالموت هو طرف من أطراف تراجيديا السؤال الإنساني ، و إن كان هذا الوعي بالذات هو شكل من أشكال تميّزه ؛ و المأساة تكمن في هذا التحول من إدراك للموت على أنه الحكم النهائي الذي لا استئناف فيه إلى رغبة في الخلود ، أي من الوعي بالنقصان إلى طلب الكمال ، و هنا يصطدم الوعي بالعوائق التي تحرم الإنيّة كمالها ، فيتم اقصاء الجسد لأنّه يذكرنا بالموت ، و يتمّ نفي الرغبة لأنها تدفعنا نحو الحيوانيّة ، و يتمّ إقصاء اللاوعي لأنه يفضح أحلامنا و يكشف الشذوذ الكامن فينا ، فنعلن تطاولا وخوفا في كلّ مناسبة أنّها كثرة تعبّر عن الغيريّة ، و أنّ الكثرة مرض لا يصيب الإنيّة بل يصيب الغيريّة. و لكن هذا التطاول و الادعاء بقدر ما يزيل الخوف من الموت يضاعف من جهلنا بذواتنا و إنيّتنا. و بقدر ما يذللّ التمزّق الوجودي و التراجيدي بقدر ما يضاعف أوهامنا.

« *jamais l'animal ne saura ce que c'est que mourir ;Et la connaissance de la mort et de ses terreurs est une des premières acquisitions que l'homme ait faites en s'éloignant de la condition animale* ».
_Rousseau: Discours sur l'origine de l'inégalité, première partie

هناك من يواجه التمزّق و القلق بالخلق و الإبداع و السؤال ، و هنالك من يواجهه بالوهم و النرجسية و الإدعاء ؛ لقد تحملّ بيتهوفن في نهاية حياته مثل هكذا تمزّقا بعد أن أصبح غير قادر على الإنصات للموسيقى التي يؤلّفها ، وهي الفترة التي أنتج فيها أفضل إبداعاته الموسيقية ، لا نعثر على مثال أكثر عدمية من هذا المثال حيث يتعذر على الموسيقي الإنصات إلى الموسيقى التي يبدعها ، ولكنّه مثال جيّد لأنه يكشف عظمة الإنسان بالرغم من مأساويّة وجوده: فقد استمرّ بيتهوفن في إبداع الموسيقى التي لن يستمع إليها أبدا ؛ كما يستمرّ الإنسان في الوجود الذي لا يقين فيه سوى الموت. و كأنّ كل واحد منّا موسيقي أصمّ ، قد تكفينا

حجة متواضعة لتثبت لنا يقينية الموت ، و لكننا نواجه اليقين بالوهم و بالحلم وبالرغبة ، و نختار في رفعة الإنسان و كبريائه الرجاء والأمل. فمع سؤال معنى الحياة ينضاف سؤال لماذا الوجود؟ لماذا هذا العالم؟ لماذا لم يكن عدما؟ هل هنالك غاية ما أو حكمة ما تختفي وراء الشيء حتى لا يكون لاشيء؟

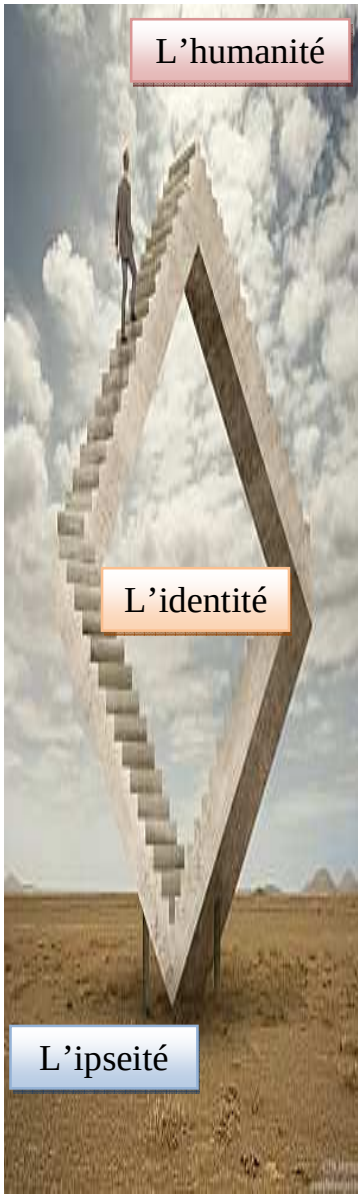

كل هذه الأسئلة و غيرها تستعيد على سطح الوجود الإنساني القلق الميتافيزيقي، الذي يكشف من جهة الإنسان و يظهر من جهة ثانية الشعور العميق بالوحدة الأنطولوجية ، وينتهي من جهة ثالثة إلى جملة من الرؤى تحاول أن تكسر الهوةّ بين الإنسان و ما حوله ، رؤى تصنع وعي الذات بذاتها و تحددّ موقع الإنسان في العالم ، فتولد الإنيّة كبعد من أبعاد الهويةّ الذاتيّة ، و تولد الخصوصيّة كوجه من وجوه الهويّة الثقافيّة ، ووراء الإنيّة والخصوصيّة يتحرّك باستمرار القلق الإنساني ، قلق منبعه وعي الإنسان انه ليس ما حوله ، فهو إما أكثر بكثير أو أقل بكثير.

لعلّ التفكير في الإنساني إذا لا يختلف كثيرا عن التفكير في رؤاه ، بل لعلّ الرؤى هي فرصتنا الوحيدة للالتقاء بالإنساني فينا ، إذ "ما الإنسان؟" خارج أسئلته ، تمثلاته ، تصوّراته و أوهامه؟ و "ما الإنيّة" خارج إطارها الثقافي الذي تتشكلّ على اساسه الخصوصية ،و يتحددّ موقف الذات و موقعها؟ بل و ما العالم ذاته إن لم يكن ما نراه و ما نفسّر به ما لا نراه؟ و لأن الإنسان ليس مجرّد وجود في العالم ، و لأن العالم ليس بالضرورة مجمل الأشياء هناك أمامنا ، فإن الفلسفة وهي تفكر في الإنساني لا يمكنها إلا أن تفكر في شكل حضوره و أن تفكر في العالم كما تتمثله الذات أو تتخيله أو تسعى إلى تفسيره و فهمه. الإنساني إذا لا يمكن الإحاطة به باعتماد بعض التعريفات و التحديدات و إنما الإحاطة تأتي من تلمّس الأسئلة التي يوجهها القلق في كل مكان.

الإنسان الذي يسأل لماذا الشيء و ليس اللاشيء؟ يدرك عبر مأساوية سؤاله انه لا هذا و لا ذاك ، انه العدم أو هو كائن ممكن أو هو مشروع إنسان.

يكون الإنسان انطلاقا من وعيه الخاص ، طبيعته الخاصة ، و حسب قرار خاص ، و عندها لن يكون الغريب أو الوحشي أو اللاإنساني ، إلا جزءا من هذه الطبيعة أو انعكاسا للقرار ؛ وليس هنالك ما يبرر الحديث عن اللاإنساني إلا الإنسان ذاته ، طالما هو بين هذا وذاك تحقق و صيرورة وإمكان.

لا يولد الإنسان إنسانا ، و إنما يصير كذلك ، وهذا يعني أن الإنسان حريّة وأن للحريّة ثمن ، وثمن الحريّة هو بناء إنيّة يكون الإنسان جديرا بها. وعلى الإنسان أن يختار بين الإنيّة والغيريّة الصورة التي يرتضيها لذاته ، أي أن يتحملّ مهمّة بناء ماهيته ،و إنتاج هويّته ، إذ الإنساني مهمة الإنسان ، حيث تكون حقيقته ما يحققّه أو ما يكون جديرا به. و الحريّة قبل الهويّة أحيانا إذا كانت مجرّد إطار سكوني تتجمدّ فيه الإنية و تفنى ؛ و الهوية هي الإنيّة أحيانا في اللحظة التي تدفع الإنسان للخلق و البناء.

PHILOFOU

22-09-2012